

الأوبئة في العلاقات الدولية: دراسة في واقع النمط التعاوني

Epidemics in International Relations: A Study in Reality of Cooperative Model



رشدي لباد LEBBAD rochdi

جامعة باتنة 1، الجزائر، rochdi.lebbad@univ-batna.dz

مخبر الأمن في منطقة المتوسط LSRMPUDI

صليحة محمدي MOHAMEDI saliha

جامعة باتنة 1، الجزائر، saliha.mohamedi@univ_batna.dz

مخبر الأمن في منطقة المتوسط LSRMPUDI

تاريخ النشر: 2023/01/01

تاريخ القبول: 2022/10/20

تاريخ الإرسال: 2022/07/31

ملخص:

شكل النمط التعاوني في العلاقات الدولية محورا أساسيا في النقاشات الأكاديمية والسياسية لعقود من الزمن في ظل ظهور تهديدات وتحديات عالمية في صورة الإرهاب، الهجرة والإحتباس الحراري...، واشتدت النزعة المتفائلة بإمكانية الدفع بتفاعلات ونماذج هذا النمط مع الإرتباك الذي أحدثته موجة الأوبئة المتتالية منذ مطلع الألفية الجديدة، غير أن جائحة كوفيد 19 أبانت عن تفوق واستمرار تصاعد مستويات المظاهر الصراعية وتوجه الدول إلى الإنعزالية وتغليب الحلول الفردية، لتسلك على إثرها النقاشات منحنى آخر يتعلق بالآليات اللازمة وبما يتطلبه بناء واقع دولي جديد يرتكز على التعاون.

الكلمات المفتاحية: الأوبئة؛ جائحة كوفيد 19؛ التعاون الدولي؛ النظام الدولي .

Abstract:

The cooperative model in the international relations formed a major focus in academic and political debates for decades in light of the emergence of global challenges and threats such as terrorism, migration and global warning... , The optimistic tendency has grown about a possibility of stimulating the interactions of this cooperative model specially with a confusion caused by the successive epidemics in the beginning of the new millennium, however the covid 19 Pandemic has demonstrated a superiority and continuity of escalation of manifestaions of conflicts and the trend of countries towards isolation and preference for individual solutions. The debates have been so preoccupied with the necessary mechanisms and what it takes to build a new international reality based on cooperation.

Keywords: epidemics; covid 19 Pandemic; international cooperation; international system .

* رشدي لباد، rochdi.lebbad@univ-batna.dz

مقدمة:

تنفرد التهديدات اللاتماثلية التي أفرزتها نهاية الحرب الباردة عن جملة التحديات التقليدية بعدة خصائص يطبعها التعقيد والحركية والإتساع، ما يفرض مواجهتها في إطار العمل الدولي المشترك ويشجع تفعيل صور النمط التعاوني، وهو ما تؤيده الآراء المطروحة على مستوى مختلف النقاشات، إذ يبدو بديهياً أن تداعيات مشكلات عالمية في صورة الأوبئة والبيئة والإرهاب تتجاوز القدرات الذاتية لوحدة النظام الدولي وتتطلب حلولاً عالمية أوسع لمواجهتها والسيطرة عليها.

مع هذا لم يكن الإعتقاد بأهمية التمكين للنماذج التعاونية في العلاقات الدولية مترسخاً بالشكل المطلوب لدى الأوساط الفكرية والسياسية على حد سواء رغم تتابع ظهور جملة من هذه التحديات في ظل سيطرة القضايا ذات الأبعاد الإقتصادية والجيوستراتيجية على الوضع العالمي الجديد، إلا أن تسلسل تفشي الأمراض المستجدة وصولاً إلى تداعيات جائحة كوفيد 19 شكل إدراكاً أكبر بضرورة تبني هذا التصور في مواجهة التهديدات الوبائية خصوصاً مع ما يميزها من تعدد جوانب تأثيراتها وشدتها وقابليتها الأكيدة للتجدد.

هذه التداعيات أدت أيضاً إلى الخوض في مستقبل النظام الدولي ومصير هيئاته للتعاون بعد الجائحة، إذ أخذت الموضوعات الإستشراافية ومتطلبات المرحلة القادمة مساحات واسعة من أعمال المهتمين بالدراسات الدولية نظراً لأن حجم نتائج الأزمة ناهز أحداثاً تاريخية كبرى أدت إلى تغيير شكل النظام الدولي أو سياسات وحداته، كما أثرت في توجهات الأدبيات الرائجة لتفسير العلاقات الدولية كالحربين العالميتين، نهاية الحرب الباردة، وأحداث 11 سبتمبر 2001.

من الواضح أن الأوبئة لها القدرة على تحفيز صور التعاون الدولي وهو الأمر الذي يدفع إلى البحث عن واقع ومكانة هذا النمط في العلاقات الدولية، وعن أهمية تعزيزه وكذا الخوض في آفاقه ومستقبله من خلال طرح الإشكالية التالية: إلى أي مدى أدت التهديدات الوبائية إلى تعزيز تفاعلات النمط التعاوني في العلاقات الدولية؟

الواقع الدولي خلال فترة جائحة كوفيد 19 المتميز باستمرار سيطرة التفاعلات الصراعية وبالعجز عن إفراز مخرجات واضحة بإمكانها أن تشكل بؤار حقيقيّة باتجاه حوكمة عالمية تسمح بانتصار المبادئ التعاونية يتيح اعتماد الفرضية التالية: لم تؤد الأوبئة التي ظهرت منذ مطلع الألفية الجديدة حتى جائحة كوفيد 19 إلى تعزيز واقع النمط التعاوني في العلاقات الدولية، حتى أن مظاهره المحدودة المقننة على المسائل اللوجستية والتقنية تخدم سياقات تنافسية أو صراعية معينة.

لمعالجة الموضوع تعتمد الدراسة مقارنة منهجية قائمة على استخدام المنهج الوصفي التحليلي، وهذا من خلال تتبع ووصف تأثيرات الظاهرة الوبائية على العلاقات الدولية وتحليل مستويات تأثيرها، وكذا تحليل أدوار النماذج التعاونية في مواجهتها، إضافة إلى استخدام بعض أدوات المنهج التاريخي وبعض التقنيات الإحصائية للوقوف على تطورها في الفترات المختلفة، ولأخذ تصورات دقيقة عن شدتها وعن حجم ما تم صياغته من مبادرات جماعية بشأنها استناداً إلى بعض المؤشرات والأرقام المتاحة.

للإجابة على الإشكالية المطروحة ينقسم المقال إلى أربعة محاور رئيسية هي:

1.مدخل مفاهيمي ونظري.

2. الأوبئة كمحفز للنمط التعاوني في العلاقات الدولية.

3. أوبئة مطلع الألفية الجديدة: إدراك أهمية التعاون الدولي.

4. جائحة كوفيد 19: حقيقة تفوق التفاعلات الصراعية.

خاتمة تتضمن جملة من النتائج والإستنتاجات .

1.مدخل مفاهيمي ونظري:

يحتاج مصطلح الأوبئة إلى ضبط مفهومه وتحديد معناه بدقة كونه يتداخل بشدة مع بعض المصطلحات المشابهة، فيما يبدو الوقوف على مفهوم شامل ودقيق للتعاون الدولي أكثر تعقيدا نظرا لتعدد مجالاته وفاعليه واختلاف نظريات العلاقات الدولية في تفسيره وتقدير أهميته.

أ. ضبط المفاهيم المرتبطة بالأوبئة:

تتداخل معاني العديد من المصطلحات الصحية المعبرة عن انتشار مرض أو فيروس معين ويصعب فصلها واستخدام المصطلح الأنسب من بينها بدقة، كونها تعبر عن أزمات صحية تتشابه باحتكامها للإنتشار، غير أنه بالتركيز على نطاق ومدى هذا الإنتشار يمكن للدارسين من خارج المجال الصحي كالمختصين في السياسة والإقتصاد تجاوز هذا الإلتباس واعتماد المصطلح الأنسب من بين مصطلحات الفاشية، الوباء، الجائحة والوباء العالمي.

تشير الفاشية (Outbreak) إلى زيادة عدد المصابين بمرض معين كشلل الأطفال أو السل في منطقة جغرافية معينة أو مجتمع معين عن العدد المتوقع، وقد تصنف حالة مرضية واحدة فقط أوعدد قليل من الحالات فاشية في حال حدثت في مجتمع يتوقع غياب المرض فيه نهائيا أوفي مجتمع غاب عنه المرض مدة طويلة، وقد تظهر الفاشية في عدة مجتمعات على نحو متزامن. <https://bit.ly/3b48ljp>

مصطلح الوباء (Epidemic) يعبر عن أزمة صحية أشد حدة من الفاشية وأكثر انتشارا، ويتم تعريفه عادة على أنه وضع ناتج عن مرض شديد العدوى وسريع الإنتشار يصاب به عدد كبير من الناس في مساحة جغرافية كبيرة قد تشمل عددا من الدول كما هو الحال مع وباء إيبولا الذي انتشر تقريبا في كل منطقة الغرب الإفريقي. (أبطوي 2020، ص. 03)

الجائحة (Pandemic) تشير إلى انتشار وباء معين على نطاق شديد الإتساع يتجاوز الحدود الدولية وقد يصل مداه إلى عدة قارات، ومن أبرز الأمثلة على الجوائح مرض نقص المناعة المكتسب (الإيدز) غير أن هذا المصطلح يطلق أكثر على الأمراض المستجدة شديدة الإنتشار والتي تحدث ارتباطا بفعل الحاجة إلى السرعة في إيجاد اللقاحات اللازمة لها. (الصدقي 2020، ص. 67)

أما فيما يتعلق بمصطلح الوباء العالمي (Global Epidemic) فيتم استخدامه عادة كمترادف للجائحة، لكن البعض يرى أن وصف العالمية ينبغي أن يكون حقيقيا كما هو الحال مع الإنتشار الكامل لمرض كوفيد 19، مع ذلك لا يحدث هذا خلطا مفاهيميا نظرا لأن مجمل الجوائح لها إمكانية الإنتشار عالميا والجهة الوحيدة المخولة بتصنيف أي وباء أو جائحة على أنها عالمية هي منظمة الصحة العالمية.

ب. مفهوم التعاون الدولي:

لا يتفق الباحثون في ضبطهم لمفهوم التعاون الدولي لعدة اعتبارات أهمها اختلاف انتماءاتهم الفكرية وطبيعة العمل التعاوني المتميز بتعدد فاعليه ومجالاته، فضلا عن توفر إمكانية قراءة المبادرات والنماذج التعاونية في إطار سياقات تنافسية أو صراعية، ما يجعل التشكيك في جوهر حقيقة العمل الدولي المشترك أمرا متاحا ومبررا للكثيرين.

تركز بعض التعريفات على الإعتماد المتبادل بين الدول فتتجه إلى أن التعاون الدولي هو "عمل منسق ومشارك بين دولتين أو مجموعة من الدول، ويكون في مختلف المجالات العسكرية أو العلمية أو التقنية أو التجارية أو القضائية وغيرها من المجالات التي تشترك وتتعاون فيها الدول بهدف التوصل إلى نتائج مشتركة في مجال التعاون، ومن خلاله يتم توقيع معاهدة دولية أو إطار تعاقد دولي". (غنيم 2020، ص. 25)

تعريفات أخرى يدرك أصحابها أن هناك فاعلين إلى جانب الدولة كالمؤسسات الدولية المختلفة والخواص، فيعرفون التعاون الدولي على أنه "الحالة التي يتم بموجبها توافق الأطراف على العمل مع بعضهم البعض بهدف تحقيق مكاسب جديدة لكل المشاركين والتي لا يمكن تحقيقها بالعمل المنفرد فالتعاون هو مجموعة من الإجراءات الإيجابية المحددة والواعية لحل قضايا معينة". (الحمداي 2004، ص. 383)

التعريفات القائمة على تعدد الفاعلين وتشعب المجالات، والمؤكد على وجود أهداف مشتركة للعمل التعاوني تبدو أكثر شمولية وإحاطة بالعناصر الأساسية، غير أنها ليست عميقة ولا دقيقة بالشكل الكافي، فوضع تعريف للتعاون الدولي في إطار مجال محدد أو قضية معينة كال حرب على الإرهاب أو التغير المناخي ليس كصياغته في إطار عام يعبر عن مجمل القضايا المطروحة.

لكن رغم عدم الدقة التي تميز التعريفات الشاملة إلا أنها تبرز بشكل جلي الاختلافات الموجودة بين التفاعلات التعاونية وتلك التنافسية والصراعية، فالتعاونية تقوم على تنسيق مبادرات وجهود أطرافها لتحقيق أهداف ومصالح مشتركة، فيما تتعارض الجهود في حالة التنافس لتحقيق مكاسب على حساب الطرف أو الأطراف الأخرى، ويشد التعارض في حالة الصراع حيث يصبح التلويح باستخدام القوة أو استخدامها فعلا أمرا ممكنا... ومجموع كل هذه التفاعلات يشكل حقل العلاقات الدولية بنمطيه التعاوني والصراعي، إذ يعتبر التنافس مرحلة أو جزءا من الصراع، واستخدام هذا المصطلح مستقلا بكثرة في الأبحاث والدراسات يعود إلى الأوضاع والتحول الجيوسياسية السائدة.

ج. التعاون الدولي في نظريات العلاقات الدولية:

لم تول النظريات الكبرى في العلاقات الدولية اهتماما كبيرا للأوبئة غير أنها أبرزت بشكل قوي موقفها من التعاون الدولي واختلفت في تفسير ظواهره، حيث تختلف تصورات ومرتكزات الواقعيين والليبراليين وتتعارض بشدة، فيما أسس البنائيون لمفاهيم مغايرة عن تلك السائدة لدى النظريات المادية التفسيرية.

تقوم افتراضات الواقعيين على أن الدولة هي الفاعل الرئيسي في العلاقات الدولية وأن أهدافها تتمحور حول تحقيق مصالحها وتعظيم قوتها وضمان أمنها القومي، ما يؤدي بالضرورة حسب مختلف اتجاهاتهم إلى هيمنة المظاهر الصراعية نتيجة لهذه الزعة الأنانية، ويتجاوز الواقعيون الجدد مفهوم الطبيعة البشرية عند التقليديين من خلال محاولتهم تقديم تفسيرات أكثر علمية بالإستناد إلى فوضوية النظام الدولي

وعدم وجود حكومة عالمية من شأنها الحرص على احترام الدول لالتزاماتها وخلق فرص حقيقية لتوحيد مجهوداتها وتوجهاتها، " فهذه الفوضى تعني أن ظواهر العنف تبقى احتمالا دائما ويجب الإحتراس منها بصفة مستمرة " . (مقلد 1982، ص. 52) ولا تنكر الواقعية وجود تفاعلات تعاونية إلا أنها تحكم بمحدوديتها وصعوبة الحفاظ عليها كما تدرجها في سياقات الأوضاع التنافسية السائدة.

خلافا للواقعيين يركز الليبراليون على وجود مصالح مشتركة خصوصا فيما يتعلق بالمسائل الاقتصادية ومختلف القضايا والمتغيرات الدولية التي تدفع باتجاه التعاون الدولي. فرغم إقرارهم بفوضوية النظام الدولي إلا أن هناك إمكانيات حسيمة لتنمية وتطوير النمط التعاوني في ظل تحقيق الوفرة والمساواة والأمن والمنافع المتبادلة بين الدول اعتمادا على المبادئ الأخلاقية والشرعية الدولية والمنظمات الدولية، ويتفاعل التعدديون بشدة بتعاظم فرص التعاون والإعتماد المتبادل نتيجة للتهديدات والتحديات العالمية المشتركة التي تتطلب تضافر جهود الدول وغيرها من الفاعلين لمواجهتها والتغلب عليها. (بوعشة 1999، ص. 17)

توصف البنائية بأنها اقتراب أكثر من كونها نظرية لاعتمادها كما كبيرا من المفاهيم والمتغيرات كالهوية، الثقافة، الفهم المشترك والخطاب، مع ذلك ومن خلال تموقعها الوسط بين النظريات التفسيرية والتكوينية قد أوجدت تصورات مميزة للتعاون الدولي وإمكانيات تحقيقه، حيث لا تنظر إلى الفوضى في النظام الدولي على أنها معطى مادي بل تقارنها اجتماعيا وتطلق عليها اسم الثقافة المشتركة إذ أن الانطباع أو الرأي هوما يحدد وجودها من عدمه، لذا فتشكل هويات الفاعلين وتوحيد فهمهم وآرائهم من شأنه أن يؤسس لإرساء قواعد صلبة للتعاون الدولي حسب البنائيين.

2.1 الأوبئة كمحفز للنمط التعاوني في العلاقات الدولية:

للأوبئة بشكل عام القدرة على تحفيز الظاهرة التعاونية كونها من المحاور الأساسية للأمن في مفهومه الحديث وهو مفهوم إنساني يؤسس للتعاون الدولي، هذا الافتراض تعززه حقيقة قصور جميع البنيات الوطنية في احتواء الأوبئة نتيجة لخصائص السرعة والإنتشار التي تميزها، إضافة إلى الواقع الهش للمنظومات الصحية في البلدان النامية التي مثلت تاريخيا بيئات مثالية نشأت وانتشرت منها عدد من الأمراض المعدية المستجدة.

أ. التهديدات الوبائية للأمن العالمي:

في تقرير صادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي سنة 1994 جاء أنه رغم ما تقدمه العولمة من فرص هائلة للتقدم البشري في المجالات كافة نظرا لسهولة انتقال المعرفة فإنها في المقابل تفرض مخاطر هائلة على الأمن البشري في القرن الواحد والعشرين، وهذه المخاطر ستصيب الأفراد في الدول الغنية والفقيرة على حد سواء، وقد حدد التقرير سبعة تحديات أساسية تهدد الأمن الإنساني في عصر العولمة أحدها الأمن الصحي لأن سهولة الإنتقال وحرية الحركة ترتبطان بسهولة انتقال وانتشار الأمراض. <https://bit.ly/3zuqhyv>

فالمتغيرات الدولية لعالم ما بعد الحرب الباردة أوجدت نمطا جديدا من التهديدات يختلف عن تلك التقليدية المبنية على الدولة والجانب العسكري، فانتقل التركيز على الأمن من مفهومه القومي الذي سيطر على الدراسات الأمنية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى نهاية القرن العشرين إلى مفهومه الإنساني المركز على أمن الفرد باعتباره أولوية تؤدي إلى أمن الدولة التي تبقى فاعلا أساسيا يلعب دور الحماية.

على هذا الأساس فخطورة التحديات الدولية الجديدة والتي لا تصدر من الدول بل من فاعلين آخرين لا يمكن مواجهتهم وفق التصورات التقليدية كما هو الحال مع التهديدات البيئية، بإمكانها أن تؤدي إلى إجبار الدول على أمنة العديد من المجالات كالتوجه إلى أمنة الشؤون الصحية، كما من شأنها أن ترسخ المفهوم الجديد للأمن العالمي وهو إطار يؤكد على اعتماد أمن أي طرف على أمن الأطراف الأخرى، وهذه خيارات لا يمكن تحقيقها دون تفعيل مظاهر التعاون الدولي في مواجهة هذه التهديدات.

ب. قصور المنظومات الوطنية في مواجهة تداعيات الأوبئة:

تؤدي سرعة انتشار الأوبئة وقدرتها على اختراق الحدود الدولية وتعدد مجالات تأثيراتها ما بين صحية، إقتصادية، إجتماعية وسياسية إلى وضع حكومات الدول ومختلف منظوماتها تحت ضغط شديد وتدفعها لاتخاذ تدابير صارمة خصوصا عند التعامل مع الأوبئة المستجدة التي تتطلب قدرات علمية ومالية ضخمة لاكتشاف لقاحاتها اللازمة، غير أن مجمل التجارب السابقة أبانت عن عجز الدول منفردة في مجابهة وتجاوز الأوبئة التي عرفتها.

تاريخيا أثرت الأوبئة بشكل كبير على توجهات الدول وسياساتها العامة ووظائفها الصحية فوباء الإنفلونزا الإسبانية الذي ظهر بين عامي 1918 و1920 خلفا وراءه ضحايا يتراوح عددهم بين 40 إلى 50 مليون شخص قد أعاد أهمية الوظيفة الصحية للدولة القومية الحديثة، لاسيما أن الخدمات الطبية كانت أغلبها آنذاك تقدم بشكل خاص أو من خلال جمعيات خيرية كذلك. (علي 2020، ص. 03)

القيام بإصلاحات وظيفية وهيكلية مهما كانت مستوياتها داخل الدولة الواحدة لم يعد كافيا لاكتساب القدرات اللازمة في التعامل مع الأزمات الصحية المماثلة حاليا، فالترابط الكبير الذي أحدثته العولمة في النواحي الإقتصادية والإنسانية وما تضمنه من سهولة في تنقل الأفراد والسلع وبالتالي سهولة تنقل الأمراض وتجاوز مخاطرها للحدود الوطنية أدى إلى عجز المنظومات المحلية في المواجهة منفردة وهوما أثبتته بعض الأوبئة الحديثة في صورة الإيدز، الإيبولا وإنفلونزا الخنازير، وعليه ظهر تحفيز صور التعاون الدولي والعمل على تفعيل منظومة الحوكمة الصحية العالمية كخيار عملي وحيد.

ج. هشاشة البنى الصحية في الدول النامية :

إضافة إلى أنها تمثل بينات خصبة لنشأة الأوبئة وانتشارها انطلاقا من أراضيها، تعاني البلدان النامية خصوصا في إفريقيا وآسيا من مشاكل كثيرة تحد من قدراتها المتواضعة من الأساس في مواجهة مختلف الأزمات الصحية، كضعف اقتصادياتها ومحدودية عائداتها، بدائية بنيتها التحتية، الصراعات والحروب الأهلية، إلى جانب غياب الوعي المطلوب للوقاية من الأمراض ومسببات انتشارها.

حال المنظومات الصحية بهذه البلدان يميزه الشح الشديد في مواردها المالية وهشاشة هياكلها إلى جانب العجز في أطرها الطبية وانخفاض مستويات تكوينها، وهوما ينفي بصفة مؤكدة قدرتها في التعامل مع الأوبئة والجوائح، خصوصا وأنها لا تعتمد أية رؤية استراتيجية ولم تضع أية أنظمة محكمة لإدارة الأزمات يمكنها تتبع خطواتها واعتمادها في تجاوز مثل هذه الأوضاع.

في هذا السياق أورد روبرت مالي وريتشارد مالي مثالا عن ضعف البنى التحتية في الدول النامية حيث يتوفر سريرا وحدة عناية مركزة لكل مائة ألف شخص في الهند وباكستان وبنغلاديش، والوضع أكثر خطورة في

إفريقيا جنوب الصحراء حيث لدى زامبيا 0.6 سرير لكل مائة ألف شخص، ولدى غامبيا 0.4 فيما لدى أوغندا 0.1 سرير، لذا فإن هذه البلدان إذا ما ضربها الوباء لن تكون مستشفياتها قادرة على احتواء العدد المصاب ورعاية الحالات الطبية الأخرى وعليه يتوقع أن يكون معدل الوفيات مهولا. <https://bit.ly/3osqKLc>

استنادا لهذه المعطيات تتأكد الحاجة الملحة للتعاون الدولي، ليس فقط كالتزام أخلاقي من الدول الغنية تجاه الفقيرة، لكن نظرا للإنعكاسات العالمية لتفشي الأوبئة والجوائح بهذه البلدان والتي لا تقتصر فقط على التأثيرات الصحية بل تتعداها لتشمل تأثيرات اقتصادية وأخرى جيوسياسية، كما من شأنها أن تؤزم قضايا عديدة كمسألة الهجرة .

3.أوبئة مطلع الألفية الجديدة: إدراك أهمية التعاون الدولي.

عرف مطلع الألفية الجديدة تتابع ظهور عدد من الأوبئة لم تبلغ تبعاتها الآثار التي خلفتها الإنفلونزا الإسبانية ولا تلك التي تحدثها جائحة كوفيد 19، إلا أنها أحدثت ارتباكات واضحة على الساحة العالمية وشكلت وعيا بأهمية تفعيل النماذج التعاونية في مواجهتها، لكن حجم هذه النماذج كان محدودا رغم بعض المبادرات من عدد من الفاعلين، إلى جانب محاولات إعادة صياغة اللوائح الصحية الدولية السارية...، والملاحظ أن التحولات الجيوسياسية التي عرفها العالم آنذاك قد ألفت بظلالها على الوضع وهو ما سمح بالبروج الشديد للسرديات التأميرية.

أ. محدودية المظاهر التعاونية:

رغم أن الأوبئة المستجدة التي تسبق ظهور جائحة كوفيد 19 مباشرة لم تبلغ مستويات انتشار وتأثير هذه الأخيرة إلا أنه كانت لها تداعيات قوية أثارت مطالبات بضرورة إيجاد حلول جماعية، حيث تشير تقارير عديدة إلى أن وباء المتلازمة التنفسية الحادة الذي ظهر سنة 2002 قد مس 26 دولة وتسبب في وفاة أكثر من 700 شخص، فيما أصابت جائحة إنفلونزا الخنازير سنة 2009 أكثر من 60 مليون شخص وقدرت وفياتها عالميا بحوالي 500 ألف وفاة، وقتل فيروس إيبولا أكثر من 11 ألف شخص غرب إفريقيا وتسبب في مشكلات كبيرة لتنقل الأفراد والسلع وأحدث خسائر اقتصادية ضخمة . <https://bit.ly/3cGmntx>

نتائج هذه الأوبئة وأخرى كإنفلونزا الطيور لم تؤد بالفاعلين على المستوى الدولي إلى تعزيز عملهم الجماعي، والأمر هنا لا يقتصر على الدول فقط بل يشمل المنظمات الدولية كهيئة الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة في صورة البنك الدولي ومنظمة الصحة العالمية التي اقتصر دورها على إعداد التقارير وإصدار التوصيات، ومن بين المبادرات القليلة خلال هذه الفترة يمكن ذكر "ضخ الولايات المتحدة الأمريكية لأكثر من 90 مليار دولار منذ سنة 2003 لمحاربة السيدا وهو ما سمح بتقديم مساعدات طبية لأكثر من 24 مليون شخص حول العالم " . (Bouhia 2020, P 04) إضافة إلى بعض المساعدات المالية المحدودة التي وجهها عدد من الفاعلين للدول المتضررة، والأدوار الإنسانية لبعض المنظمات الدولية غير الحكومية كمنظمة " أطباء بلا حدود " في محاربة وباء إيبولا غرب إفريقيا.

والواضح أن التوجهات الدولية خلال هذه الفترة قد تأثرت بشكل كبير بالأوضاع الجيوسياسية السائدة، على الأخص بعد أحداث 11 سبتمبر 2001 وما اصطلح عليه بالحرب الدولية على الإرهاب لذا تم التعامل مع الأوبئة والبيئة كمسائل هامشية.

ب. تحيين اللوائح الصحية الدولية:

تأسست القواعد الصحية الدولية من جملة المؤتمرات والمعاهدات الدولية المبرمة تاريخيا انطلاقا من المؤتمر الدولي للصحة بباريس سنة 1851، واستمرت هذه القواعد في التطور حتى حققت نجاحات كبيرة مطلع القرن العشرين من خلال مساهمتها في تحسين مستويات أداء الأنظمة الصحية للدول والدفع بمشاريع البحث العلمي في المجالات الطبية والصيدلانية وكذا تمكّنها من خفض معدلات الوفيات لدى الأطفال، لكن نجاحاتها هذه لم تقترن بنجاحات مماثلة فيما يتعلق بمحاربة الأوبئة والجوائح خصوصا المستجدة منها، لذا كانت إعادة صياغة اللوائح الصحية الدولية ضرورة ملحة.

عجلت أوبئة مطلع الألفية الجديدة بالإتجاه نحو هذا التجديد من خلال إصدار اللوائح الصحية الدولية لسنة 2005 وهي اتفاقية قانونية تشمل 196 دولة، وتمثل الصكوك الأساسية لمواجهة الأمراض في العالم بما في ذلك الأوبئة، والغرض الرئيسي من هذه الصكوك هو الوقاية والحماية والسيطرة وتوفير استجابة للصحة العامة أثناء انتشار الأمراض على الصعيد الدولي، هذه اللوائح تنشئ نظاما لمراقبة الدولة والإبلاغ عن بعض الأمراض المعدية مما يؤدي إلى استجابة دولية، كما توضح الإجراءات والأطر لاتخاذ القرارات المستعجلة في حالات الطوارئ الصحية العمومية ذات الإهتمام الدولي. (بن قطاط 2020، ص. 556)

رغم الأهمية الكبيرة التي تكتسبها مراجعة اللوائح الصحية الدولية خصوصا في تلك الفترة التي عرفت ظهور أوبئة وجوائح بصورة متتابعة إلا أنها تعاني مشكلات كبيرة على مستويين اثنين ما يضع دورها في تحقيق الإستجابة الجماعية لكل التهديدات الصحية في موضع شك، حيث يتعلق المستوى الأول بالصياغة في حد ذاتها إذ لم تبين بدقة المسؤوليات التي تقع على عاتق الدول وباقي الفاعلين، أما المستوى الثاني فهو يتعلق بسلطة الإلزام إذ تعاني منظمة الصحة العالمية باعتبارها الجهة المخولة بمراقبة تنفيذ هذه اللوائح من افتقارها لهذه السلطة على الدول ليقصر دورها أكثر على المهام الإستشارية وجمع المعلومات.

ج. رواج السرديات التأميرية:

أدت إمكانية الربط بين الأوبئة والحروب البيولوجية إلى رواج السرديات التأميرية خلال فترات جميع الأوبئة والجوائح التي شهدتها العالم، غير أن تبني مثل هذه المقاربات اشدت في زمن العولمة أين تطورت تكنولوجيا الاتصالات وبلغت القدرات العسكرية أعلى مستوياتها، لذلك اعتمدت شرائح واسعة من المفكرين والسياسيين القراءات التأميرية السائدة حول الأوبئة ورأت أنه تم إيجادها لخدمة المصالح الإقتصادية والسياسية لمبتكريها.

بعض ممن يعتقدون بضلوع الولايات المتحدة الأمريكية في نشر الأوبئة المستجدة بداية من وباء المتلازمة التنفسية الحادة الذي ظهر سنة 2002 خدمة لمصالحها الإقتصادية وحماية لمكانتها العالمية يدللون على مواقفهم من خلال استذكار بعض الحوادث الناتجة عن المختبرات البيولوجية الأمريكية، حيث أنه نتيجة لتسريبات على مستوى مخابرها العاملة بأوكرانيا تم الإبلاغ في مارس 2016 عن 364 حالة وفاة معظمها ناتج عن إنفلونزا الخنازير (H1N1)، بالإضافة إلى أنه تم الإبلاغ عن انتشار مريب لعدوى التهاب الكبد A في الجنوب الشرقي للبلاد حيث توجد معظم المختبرات الأمريكية، وكذلك عدد معتبر من حالات الكوليرا بسبب تلوث مياه الشرب. (رشاد 2021، ص. 151)

الإنخراط في اعتناق افتراضات نظريات المؤامرة حول الأوبئة بدل البحث في تفسيراتها العلمية قد يجد تبريرا له في أوضاع السياسة الدولية خلال هذه الحقبة وما ميزها من مظاهر الهيمنة، إلا أن الأكيد أنه عطل حركية مسارات التعاون ووجه التركيز عن محاولة إيجاد أطر دولية مشتركة للتعاون الصحي، ووضع عراقيل كبيرة ترتبط بالنوايا أمام أية مساهمات محتملة.

3. جانحة كوفيد 19: حقيقة تفوق التفاعلات الصراعية.

منذ ظهور جائحة كوفيد 19 نهاية سنة 2019 وهي تحدث أضرارا ضخمة ناهزت تلك التي أحدثتها محطات كبرى في تاريخ العلاقات الدولية كالحربين العالميتين، وأمام طبيعة هذا التهديد كان من المنتظر أن تتجه الدول إلى تنسيق مجهوداتها، غير أن الذي حصل هو قصور في النماذج التعاونية، واشتداد في حدة مظاهر الصراع، الأمر الذي دفع إلى التساؤل عن مستقبل النظام الدولي وسبل تفعيل أنساقه التعاونية.

أ. قصور النماذج التعاونية:

سببت جائحة كوفيد 19 تأثيرات عالمية غير مسبوقه حيث مست حياة جميع الشعوب على مستوى مختلف المجالات، إذ أدت إلى إغلاق سلاسل الإمداد وأوقفت حركة الأشخاص والسلع تماما مثلما أوقفت مجمل الحركات الاجتماعية والثقافية، وبلغت أرقام الخسائر الناتجة عنها حدودا هائلة، من ذلك عدد الوفيات الذي تعدى منتصف سنة 2022 الستة ملايين نسمة.

أمام عجز الدول على اختلاف قدراتها في الخروج من هذا الوضع كان ضروريا تبني خيارات ومبادرات تعاونية، غير أنها كانت محدودة للغاية خصوصا في بداية الأزمة، حيث سارعت الدول عوضا عن ذلك إلى اتخاذ إجراءات غلق الحدود والحجر الصحي للسكان تماما مثلما كان يتم العمل به في القرون الوسطى، كما غاب حس المسؤولية الجماعية في تصنيع اللقاحات وتوزيعها، إذ غلب الطابع التنافسي على جهود المصنعين فيما عرف التوزيع إجحافا كبيرا بحق البلدان المنخفضة الدخل رغم آلية "كوفاكس" التي صيغت بهدف تحقيق توزيع منصف للجميع، أما منظمة الصحة العالمية التي كان ينتظر أن تضطلع بدور قيادي فقد بدت عاجزة عن تجاوز أدوار جمع المعلومات وتقديم الاستشارات نتيجة لعوامل عديدة أهمها افتقارها لسلطة الإلزام ومعاناتها من الإنشاقات الداخلية التي جسدها الخلاف الصيني الأمريكي. (Houssin 2020 .P 44)

المنظمات الإقليمية كما المنظمات العالمية والمتخصصة لم تسهم في الدفع بالعمل المشترك في محاربة الوباء، وهو الأمر الذي يظهره عدم اتفاق الدول الأوروبية على خطة عمل واحدة وغياب كامل لمنظومتهم في مساعدة إيطاليا أكبر بلد أوروبي متضرر عند بداية الأزمة، مع ذلك كانت هناك مبادرات لبعض الدول كالصين وبدرجة أقل روسيا تم إدراجها تحت مسمى " دبلوماسية الأقنعة " حاولت من خلالها تقديم مساعدات طبية ولوجستية للدول الأكثر تضررا، تنوعت هذه المساعدات ما بين لوازم طبية عانت حينها السوق العالمية من ندرتها وأطقم عاملة إضافة إلى كميات من اللقاحات، وبالرغم من أثرها الجيد على مستوى بعض الدول إلا أن نواياها تم ربطها بأطر وسياقات إستراتيجية وتنافسية.

ب. اشتداد المظاهر الصراعية:

على النقيض من المنطق القائل بضرورة التقارب أثناء الأزمات العالمية، استمرت المواجهات بين أطراف بؤر النزاعات في العالم واشتدت في أخرى، ولم يظهر على المتواجهين وعي بالمنعى الذي يمكن أن تأخذه

الأوضاع في ظل الجائحة خصوصا وأن هشاشة مناطقهم وما يميزها من سوء للتغذية وتدهور في الخدمات الصحية يشكل بيئة مثالية لتفشي الأمراض، هذا الواقع لم ينتج جهودا دولية لتسوية هذه النزاعات حيث انشغلت القوى الكبرى بمواجهة الوباء على مستوى أراضيها ولم تبد اهتماما للأمر مما أدى إلى تردي الأوضاع أكثر في مناطق كثيرة كاليمن، سوريا ومنطقة الساحل الإفريقي.

لم تكتف الدول الكبرى بالإمتناع عن تسوية الأوضاع المتردية في مناطق النزاع خدمة لما تتطلبه ظروف الوباء بل انخرطت في خلافات شديدة بينها، إذ حصل تباعد صيني أمريكي كبير جراء الإتهامات الأمريكية للصين بالتسبب في صنع الوباء ونشره وتقديم معلومات مضللة بشأنه، أتبعه قيام الولايات المتحدة على لسان رئيسها دونالد ترامب يوم 14 أبريل 2020 بوقف مساهمتها في تمويل منظمة الصحة العالمية، وكنتيجة لهذه المواجهة سادت حالة من الجمود الذي تجاوز إطار هذه المنظمة ليطل كل أجهزة الأمم المتحدة وكل المنظمات والمؤسسات الدولية. (كواتي 2022، ص. 357)

الحرب في أوكرانيا وما صاحبها من جذب في السياسة الدولية، جاءت كبيان قوي لتدني مستويات الإهتمام بمواجهة التحديات العالمية في صورة الأوبئة مقارنة بالرغبة في تحقيق مصالح جيوسراتيجية، فهذه الأزمة تعبر بامتياز عن انشغال بعض القوى الكبرى بالحفاظ على الوضع القائم في النظام الدولي فيما تعمل قوى أخرى على تغيير توازناته دون الأخذ في الاعتبار لما يهددها جميعا في ظل أي وضع كان، وهذا يمثل انتصارا لمجمل فرضيات النظرية الواقعية في تفسيرها للظاهرة التعاونية.

ج. مستقبل الظاهرة التعاونية بعد الجائحة:

تحاول الكثير من الدراسات الدولية استشراف مستقبل النظام الدولي ووضع سيناريوهات مختلفة بشأن ما قد يتحقق بعد الجائحة، ويأتي الاعتقاد باتجاه هذا النظام إلى التغير من منطلق أن الأحداث التاريخية الكبرى قد أدت إلى تغير الأنظمة السائدة وقتها وأودت على الأقل إلى تغير أشكال التوازنات داخلها، فيما ذهبت محاولات أخرى لتشخيص ما يتطلبه تفعيل النمط التعاوني في العلاقات الدولية مستقبلا.

اعتقدت أغلب الدراسات أن عجز النظام الدولي الحالي عن إيجاد صيغ للتعاون في مواجهة كورونا سيعجل من حدوث تغيرات جوهرية فيه، فالكثيرون يرون أن ما يعزز هذا هو أن التوازنات الدولية قبل الوباء وانتشاره تشير إلى بداية حدوث هذه التغيرات، كأنه يتجه إلى شكل من أشكال تعدد الأقطاب في ظل صعود قوى دولية مثل الصين وروسيا والاتحاد الأوروبي تتعارض مصالحها في مناطق مختلفة من العالم، في ظل سعي الولايات المتحدة للهيمنة دون صعود قوى منافسة لها في المدى المنظور . (حسين 2021، ص. 41)

باحثون آخرون لم ينساقوا وراء الدراسات المهتمة بالأشكال التي يمكن أن يأخذها النظام الدولي، فقد أدت محدودية المظاهر التعاونية التي ميزت السياسة العالمية في مواجهة جائحة كوفيد 19 إلى انشغالهم بالتفكير بأفاق العمل الدولي المشترك ومتطلبات تفعيله مستقبلا لمواجهة الأزمات التي قد تفرضها أوبئة أخرى أو أية تهديدات عالمية مشابهة، وخلص العديد منهم إلى ضرورة السعي نحو تحقيق حوكمة صحية عالمية مبنية على مشاركة جميع الفاعلين تراعى فيها ضرورة مراجعة لوائح القانون الصحي الدولي وإعطاء الجهات المخولة بتطبيقها في صورة منظمة الصحة العالمية ومجموع المنظمات العالمية والمتخصصة القدرة على إلزام جميع الفاعلين باحترامها، إضافة إلى ضرورة وضع نظام عالمي لإدارة الكوارث والأزمات قد يسمح بالتغلب على جميع أشكال التهديدات العالمية مستقبلا.

خاتمة:

تمثل الأوبئة نموذجا قويا للتحديات الجديدة في العلاقات الدولية، إذ أن لاتماثلتها مع الفاعلين الدوليين، إضافة إلى حركيتها وانتشارها وإمكاناتها في إحداث تداعيات تمس جميع المجالات، تجعل احتواءها عملية تتجاوز قدرات الدول منفردة مهما بلغت استعداداتها وكفاءة منظوماتها الصحية والإقتصادية، وبالرغم من أنها قد أثرت تاريخيا على مسارات الدول والشعوب، إلا أن مستويات هذه التأثيرات لا تقارن بمستويات ما يمكن أن تحدثه من مخاطر في ظل العولمة مع ما جاءت به من تعقد في صور الإعتماد المتبادل.

هذه القدرات الكبيرة في التأثير إضافة إلى عوامل أخرى كظهور المفهوم الإنساني للأمن، والتسليم بفشل المنظومات الصحية والإقتصادية لجميع الدول منفردة في مواجهة تداعيات الأوبئة، إلى جانب الواقع الهش للبنى الصحية في الدول النامية، من شأنها تحفيز التفاعلات التعاونية، والتأكيد على حتمية الإنخراط في مساراتها كونها تمثل الخيار الوحيد لتجاوز أضرار غير مسبوقة قد يفرضها انتشار مرض مستجد.

أدت أوبئة مطلع الألفية الجديدة إلى ترسيخ الإعتقاد بأهمية العمل الدولي المشترك خصوصا في شكله العالمي متعدد الأطراف، إلا أن النماذج التعاونية ظهرت حينها محدودة حيث اقتصر على تقديم المساعدات المالية، ومراجعة اللوائح الصحية الدولية دون البحث في سبل توفير سلطات الإلزام لاحترامها، فيما سادت الشكوك وسط عدد من الفاعلين وازدهرت السرديات التأميرية.

أبانت جائحة كوفيد 19 رغم جسامة تداعياتها عن انتصار مرتكزات الفكر الواقعي، حيث تميز الوضع بضعف مستويات مظاهر التعاون الدولي، واستمرار تصاعد التفاعلات الصراعية حتى في أوج فترات الأزمة أين سيطرت الإعتبارات الإستراتيجية وحسابات المصالح والأدوار، كما استمر رواج الفرضيات التأميرية.

متطلبات التمكين للظاهرة التعاونية في عالم ما بعد كورونا تقتضي إجراء تعديلات قانونية ومؤسسية هامة تغير من شكل التفاعلات الحاصلة داخل النظام الدولي باتجاه حوكمة عالمية متينة، لكنها تقتضي قبل محاولة إعداد أية مسودة توفر الإرادة الجادة لدى الفاعلين الدوليين لخوض هذا المسار التعاوني، وهو أمر قد تظهر بوادره إذا ما تشكل لدى القوى الموجودة الوعي اللازم بمخاطر التهديدات العالمية المشابهة.

قائمة المراجع:

باللغة العربية:

1. أحمد قاسم حسين. (ماي 2021). مجال تأثير الأوبئة في العلاقات الدولية. الدوحة: مجلة سياسات عربية. ع 50.
2. إسماعيل صبري مقلد مقلد. (1982). السياسة الدولية: دراسة تحليلية مقارنة. الكويت: جامعة الكويت.
3. أميرة السيد حسن الصديق. (سبتمبر 2020). جائحة كوفيد _ 19 والعلاقات الدولية: بين الصراع والتعاون. ألمانيا: مجلة إتجاهات سياسية. مج 03. ع 12.
4. ب.م. (11 مارس 2020). الفرق بين الفاشية والجائحة والوباء. من موقع الباحثون السوريون، على الرابط التالي: <https://bit.ly/3b48ljp>
5. ب.م. (10 مارس 2020). من الموت الأسود إلى فيروس كورونا.. 10 أوبئة غيرت مجرى التاريخ البشري. من موقع شبكة الجزيرة، على الرابط التالي: <https://bit.ly/3cGmntx>
6. خالد حنفي علي. (جولية 2020). الأوبئة ونظريات العلاقات الدولية.. اختيار تفسيري. القاهرة: مجلة السياسة الدولية. ع 221.

7. خديجة بن قشاط. (جويلية 2020). المجتمع الدولي في مواجهة الأوبئة والجوائح. مجلة دراسات وأبحاث. مج 12. ع 08.
8. سوزي رشاد. (أكتوبر 2021). الفرضيات الجدلية لكوفيد _ 19 ما بين نظرية المؤامرة والمقاربة الإيكولوجية . القاهرة: مجلة كلية الاقتصاد والعلوم السياسية. مج 22. ع 04.
9. عبد الرحمن علي إبراهيم غنيم. (30 أبريل 2020). التعاون الدولي لمواجهة الوباء العالمي " كوفيد _ 19 " . الجزائر: مجلة الندوة للدراسات القانونية. ع 32.
10. علاء الدين أبوزينة. (25 مارس. 2020). عندما يضرب الوباء الأكثر ضعفا . . البلدان النامية تتجه نحو كارثة بسبب "كورونا". من موقع الغد . على الرابط التالي: <https://bit.ly/3osqKLc>
11. فاطمة الزهراء كواتي. (2022). التعاون الدولي ورهان جائحة كورونا. الجزائر: دائرة البحوث والدراسات القانونية والسياسية. مج 06. ع 01.
12. قحطان أحمد سليمان الحمداني. (2004). الأساس في العلوم السياسية. عمان: دار مجدلوي للنشر والتوزيع.
13. محمد أبطوي. (22 جوان 2020). الأوبئة في الطب العربي وفي التاريخ الثقافي والإجتماعي. الدوحة: المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية.
14. محمد بوعشة. (1999). التكامل والتنازع في العلاقات الدولية الراهنة . بيروت: دار الجيل.
15. منى عبد الفتاح. (25 مارس. 2020). كورونا ومعضلة التكيف المتوازن بين الأمنين القومي والإنساني. من موقع اندبندنت عربية بودكاست، على الرابط التالي: <https://bit.ly/3zuqhyv>

باللغة الفرنسية :

1. Didier houssin.. (automne 2020) . la coopération sanitaire international a l'épreuve du covid 19. politique étrangère . vol 85 . n° 03.
2. Hynd Bouhia. (juin 2020). La pandémie covid 19 a changé l'échiquier géostratégique mondial. Policy Brief. PB 20_54.